

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثالثة - العدد التاسع - ربيع ١٣٩٢ش / آذار ٢٠١٣م

صص ١٦٩ - ١٥٣

## السحر الحلال

(إعادة النظر في فكرة بايزيد البسطامي من خلال قصة شمس الدين والمولوى)

اردشير منظمي\*

سيد محمود ميرزاىى الحسينى\*\*

### الملخص

ترمى هذه المقالة إلى دراسة فكرة بايزيد البسطامي في ضوء شطحياته، والبحث في آراء العارفين والصوفيين المعروفين في تاريخ العرفان الإسلامى حول الموضوع المذكور أعلاه. في اللقاء الأول بين شمس الدين التبريزى ومولانا جلال الدين البلخى في مدينة قونية، طرح سؤالٌ أثار بشدة كيان مولانا الذهني والفكري. سأله شمس الدين: محمد(ص) أفضل أم بايزيد؟ ومع أننا نعتقد أنّ محمدًا أفضل من بايزيد، فلماذا قال بايزيد: "سبحاني ما أعظم شأنى" وقال الرسول(ص): "ما عرفناك حق معرفتك". هذا السؤال يتشكّل من قضيتين: القضية الأولى هي قضية شطحية أشغلت بال أهل المعرفة، والقضية الثانية، قضية مشروعة ومقبولة ومعروفة. أصبح للشطح البايدي صدى واسع في الأوساط الصوفية، وأدى إلى ظهور اتجاه انحيازي من جانب شيوخ كبار مثل الإمام إسماعيل المستملى البخارى والإمام محمد الكلاباذى والطار والمولوى وغيرهم. وإلى جانب هذا الاتجاه ظهرت تحليلات علمية جيدة بقلم شيوخ بارعين مثل إبي نعيم الأصفهاني، أبي نصر السراج والقشيري. إذا تأملنا في آراء أهل المعرفة والتصوّف وشارحي شطحيات بايزيد البسطامي نستطيع أن نصّفها في أربعة أقسام: قلّة قابلية بايزيد، الشطح البايدي، بايزيد كنموذج من عقلاء المجانين والحبّ الإلهي عنده.

الكلمات الدليلية: بايزيد، شمس الدين التبريزى، المولوى، الشطح، الحبّ، المعرفة.

\*. أستاذ مساعد بجامعة لرستان، إيران.

mahmudalhosaini@gmail.com

\*\* أستاذ مساعد بجامعة لرستان، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندى

تاريخ القبول: ١٣٩٢/٤/١٢

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٣/٢٧

## المقدمة

قصة اللقاء الأول بين الشيخ محمد البلخي والشيخ شمس الدين التبريزي هي من أهم أحداث التاريخ العرفاني في إيران والإسلام أيضاً. في بادئ الأمر يعدّ هذا الحدث التاريخي قضية تافهة وعادية كسؤال مؤمن من مفتي المدينة؛ ولكنّه من منظار العرفان أدّى إلى نتيجة جديرة بالانتباه التي حوّلت الكيان العرفاني لمولى "قونية" تحويلاً كاملاً من "الخوف والمعرفة" إلى "الحب والتجربة"؛ لهذا لا بدّ أن نسأل: ما كانت ميزة هذا الحدث التاريخي حتى استطاع أن يوصل شيخاً إلى قمة العرفان والتصوّف ويضرم النار في أجمة كيانه؟

هذا الحدث كان يطرح سؤالاً واحداً جعل مولى البلخ وقونية يتخذ موقفاً في شطح الشيخ البسطامي. في الحقيقة كان كلام بايزيد البسطامي ادعاءً مثيراً للأحاسيس الجياشة، والحسد سرعان ما اتّسم بالميسم الشطحي الحادّ، وأثار الموافقين والمخالفين للتعبير عن آراءهم وإصدار الحكم له أو عليه. قد أثر هذا السؤال في المولوى تأثيراً عميقاً كأنّه دخل مرّة أخرى في عالم العقل والعلم؛ لأنّ فهم السؤال هذا وإدراكه كان ثقيلاً ورهيناً بمساعدة شيخ يجيش في صدره الحبّ والشوق.

## منهج البحث

منهجنا في البحث هو دراسة هذا الحدث التاريخي في الكتب التي اهتمت به؛ لذلك اتّجهنا نحو الاتجاه التاريخي-الأدبي والتحليلي في البحث مستفيدين من المصادر والمراجع التي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالموضوع.

## خلفية البحث

بما أنّ أبابيزيد البسطامي ذو سمعة عالية في تاريخ التصوف الإسلامي لذلك لانعثر على مصدر علمي إلّا وقد بادر إلى ذكره واستوفى الباحثون -قبله وبعده- الحديث عنه، ولكنّ هذه البحوث لاتعطينا معلومات وافية عن حياته ومصيره، بل تكتفي بذكر بعض شطحياته حيث اشتهر بشيخ الشطحيات، والحقيقة أنّ صيته طبّق الآفاق بسبب "سلوكه المتميّز بالسكر".

تطرق الإمام محمد مستملى البخارى فى شرح التعرف لإبراهيم الكلاباذى فى طباط كتابه إلى أحوال بايزيد، وبادر إلى شرح كلامه مدافعاً عنه. وقد اختص الشيخ العطار النيشابورى قسماً كبيراً من كتابه "تذكرة الأولياء" بالشيخ البسطامى، وأشاد به بلغة شعرية وأدبية قلما نجد أحداً ذكر بايزيد البسطامى بهذا الجمال اللغوى.

لم يبين الملا نورالدين عبدالرحمان الجامى شيئاً من أحوال بايزيد رغم شهرته الواسعة، بل اكتفى بذكر أصله ونسبه ووفاته، كأنه لا يوافق البسطامى، وقد تطرق سائر الشيوخ وأصحاب التذكرة، والتحقيق مثل بونعيم الأصفهاني، ابن الجوزى البغدادي، بونصر السراج وأبى القاسم القشيري إلى حياة شيخ البسطام وأفكاره بصورة عابرة.

لا يخلو أى كتاب فى تاريخ التصوف عند الباحثين المعاصرين عن ذكر بايزيد. فمؤلفات الباحثين الإيرانيين الدكتور قاسم غنى والدكتور زرين كوب نحو "تاريخ التصوف" و"البحث عن التصوف" منورة بنور بايزيد؛ فلما بلغنا فى القول إن قلنا أن المثوى المعنوى - المجموعة الشعرية الكبيرة لسلوك السالكين فى تاريخ الأدب والعرفان - رهين بالفكر البازيدي وبلغته.

الشيخ العطار النيشابورى عطار الروح والجسم للنيشابوريين يقول فى وصف «أبى يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان» (جامى، ١٣٧٠ ش: ٥٦؛ كلاباذى، ١٣٧١ ش: ٢٩): «كان سلطان العارفين وبرهان المحققين... حجة الله وخليفته بالحق». (نيشابورى، ١٣٧٢ ش: ١٦٠)

أجمع الباحثون القدامى على أن أجداد بايزيد كانوا من عبدة النار، وعلى حدّ تعبير العطار «كان أبوه من أكابر البسطام» (المصدر نفسه: ١٦٠) ثم آمن بدين خاتم النبیین. كان لولده ثلاثة أبناء: آدم، طيفور وعلى. «كلهم كانوا زهاداً عبّاداً». (القشيري، ١٤٢٣ ق: ٣٧؛ ابن جوزى، ١٤١٢ ق: ج ٢ / ٧٣)

لم يتفوه القدامى فى مجال تأثير سنة عبادة النار على فكرة بايزيد ولغته وليس آراء المتأخرين فى هذا المضمار إلا الظن والتصور؛ لأن المعلومات التاريخية والوثائق قليلة جداً. كانت حياة بايزيد التربوية ممتزجة بالرؤية الدينية الملتزمة بالحلال والابتعاد عن الحرام، وكانت تهتم أسرته اهتماماً بالغاً بتهديه وفق الشريعة الإسلامية. يبدو أنه لم يسكن فى البسطام مدة طويلة؛ لأنه وفق رأى العطار تجول ثلاثين سنة فى الشام، وراض

نفسه بالتقوى رياضة شديدة، أينما كان يجد شيخاً يحضر في حلقة درسه، وقام بخدمة مائة وثلاثة عشر شيخاً وعارفاً واستفاد منهم استفادة كاملة. ومن جانب آخر بسبب سلوكه وفكرته الخاصة كان يخالفه عدد كبير من العامة والخاصة حتى أخرجه سبع مرّات من البسطام؛ ولكن الأمر الذى حوّل طفل البسطام إلى شيخ البسطام هو الجهد الذى كان يبذله في مجال اكتساب المعرفة والاستضاء بنور الولاية والإمامة.

قد اشار الشيخ العطار النيشابورى إلى هذه القضية إشارة دقيقة قائلاً: «استفاد بايزيد من جميع الأعظم ومنهم جعفر الصادق رضى الله عنه. حكى أنه كان حاضرًا بين يدي الصادق، قال له الصادق: خذ الكتاب من المشكاة. أجاب بايزيد: أين المشكاة؟ قال الصادق: منذ عهد بعيد عشت هنا، ألم تر المشكاة؟ قال: لا، هذا لا يهمنى. ما جئت للمشاهدة. قال الصادق: إذا فاذهب إلى البسطام. تمّ عملك. (نيشابورى، ١٣٧٢ش: ١٦١)

نستنتج من هذا الحوار أنّ بايزيد كان تحت تربية الإمام الصادق عليه السلام وإطاعته، وحسب أمره رجع إلى البسطام، وبادر إلى تعليم الآخرين. ولاشك في أنّ الوصول إلى هذه المكانة العرفانية كان رهيناً بالمجاهدة والرياضة ومصاحبة أكابر الدين والأئمة، حيث يقول بايزيد: «كنت حدّاداً لنفسى اثنتى عشرة سنة، أجعلها في بوتقة الرياضة، وأحميها بنار المجاهدة والتزكية، وأضربها بمطرقة الملامة حتى صنعت من نفسى مرآة.» (المصدر نفسه: ١٦١)

رأى بايزيد حقائق كثيرة في ضوء الرياضة النفسية والتزكية لم يصل إليها إلاّ الأولياء. «مرّت روحى على جميع الملكوت وأريت لها الجنة والجهنم»، في هذا المعراج الروحى «شاهد الحقّ والحقيقة بعين اليقين» ووصل إلى حضرة الرسول الأكرم (ص) رسول العقل والعلم والعصمة. يقول العطار النيشابورى: «بايزيد فينا كجبرئيل في الملائكة»، وقال هو نفسه: «لا بدّ أن تمرّ مأتين سنة على بستان حتى تزهر زهرة مثلنا.» (المصدر نفسه: ١٦٥-٢٠٠)

عدّ الإمام محمد الكلاباذى في كتابه القيم "التعرف" في الباب الثانى تحت عنوان "في رجال الصوفية" بايزيد من أقطاب الصوفية، وأكد على الصلة المعنوية الوثيقة بينه وبين

أهل البيت عليهم السلام خاصة الإمام الصادق (ع) قائلاً: «بعد الصحابة رضوان الله عليهم على بن الحسين زين العابدين وابنه محمد بن علي الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق رضی الله عنهم، بعد علي والحسن والحسين رضی الله عنهم، وأويس القرني... أبو يزيد طيفور بسطامي.» (كلاباذي، ١٣٧١ش: ٢٧) يؤكد الكلاباذي على أن الشيخ الصوفي الأوّل من أهل خراسان والمجبل هو أبو زيد طيفور بن عيسى البسطامي.

تدلّ الدراسات الحديثة في أحوال شيخ شيوخ البسطام على أن مجاهداته الكثيرة في السلوك العرفاني والوصول إلى المقامات العرفانية هي السبب الرئيس لشهرته الواسعة في الآفاق، حيث من الممكن أن يقال إنّه حظى نصيباً وافراً من الإسلام والثمار النافعة من السلوك والمجاهدة؛ لذلك صار في عداد أرباب القلوب.

شخصية بايزيد وصداهها في المثوى المعنوي تدلّ على محافظته على الشريعة الإسلامية واتباعه من السّنة النبوية الشريفة، على سبيل المثال حينما يرى أنه يشعر بالكسل وقت الصلاة يدرك أن سبب تكاسله وتثاقله هو أنه شرب الماء كثيراً؛ لذلك يشترط على نفسه «ألاً يشرب الماء مدة سنة كاملة.» (نیشابوری، ١٣٧٢ش: ٢١١) قد أشار المولوى في طيّات ديوانه الشعري إلى حكايات بايزيد وآراءه وكلامه حيث يقول:  
بايزيد از بهر این کرد احتراز دبد در خود کاهلی اندر نماز  
(مثنوى: ١٦٩٩/٣)

(ابتعد بايزيد عن هذا العمل؛ لأنه رأى أن شرب الماء هو السبب في تثاقله وتكاسله في الصلاة) هذا النموذج من سلوك بايزيد يدلّ على جهده المتواصل في السلوك العرفاني وشهرته الواسعة بهذه الميزة السلوكية؛ لهذا من العجيب أنه عندما طلبوا من كافر زمن بايزيد أن يعتنق الإسلام أجاب: لو كان الإسلام هو الإسلام الذي يلتزم به أبويزيد، فلا طاقة لي ولو كان الإسلام هو الذي يؤمنون به فلايفيدني. (أنظر: المثنوى: ٣٣٥٦/٥)

بايزيد عند المولوى نموذج مسلم كامل ومناطق للإيمان؛ لذلك كان يذكرنا مراراً وتكراراً أن الذين يتظاهرون بالتصوف عليهم ألاّ يسمّوا أنفسهم ببايزيد. (زرين كوب، ١٣٧٢ش(ب): ٢٨٥) فهذا الشاعر العارف يصاحب لفظة "يزيد" الخليفة الأموية المبعوضة مع "بايزيد" العارف الكبير؛ لكي يبيّن شدة المشقة والتعب في سبيل التحول من

اليزيدية إلى البازيزيدية كما يجلس "أنا الحق" الحلاجية إلى جانب "أنا الرب" الفرعونية ليتفاخر بقدرة السلوك والمجاهدة القوية:

أى شب كفر از مه توروز دین گشته یزید از دم تو با یزید

(يا من تبدل ليل الكفر إلى يوم الدين من ضوء قمر وجهك وأصبح يزید بايزید

بأنفاسك الطيبة)

يرى الخواجه عبدالله الأنصارى أن بايزيد كان ملتزماً شديداً بالالتزام بالشريعة، ويؤكد الجنيد على التزام بايزيد الشديد بالأوامر والنواهي. (السلمى، ١٤١٩ق: ١٠٥)؛ لهذا ندرك جيداً أن تصوف بايزيد كسائر الصوفيين مثل الحلاج، ذى النون، شبلى وأبوسعيد و... كان تصوفاً سلوكياً نابعاً عن المعرفة الدينية. إن المجاهدات التي تحملها بايزيد جديرة بالوصف والتبيين حقاً قيل: «إن بايزيد لم يدرك سر الصدقة الخفية إلا بعد أداء سبعين حجاً ماشياً على الأقدام. الصدقة الخفية هي أن تكون أنت غير واع من لذة إعطاء الصدقة بسبب الإستغراق في الإخلاص وكتمانه.» (الأفلاكي، ١٣٦٢ش: ٦٩٣/٢) فهذا المكتسب المعنوي هو الذي أوصله إلى مقام "الفقر" في عالم المعنى.

إن سلوك بايزيد القائم على الحق والمحافظة على الأدب في الكلام والسلوك الفردي والاجتماعي والانتقاع عن الخلق من العوامل الرئيسية التي لعبت دوراً مهماً في تكوين شخصيته الدينية ونظرته الإلهية. إن الحكاية التي حكاها المولوى عن بايزيد في المنوى تدل على أنه لا يرى شيئاً إلا الحق. والحكاية هي «أن بايزيد رأى رائض حمير في الطريق، فصاح: يا رب أهلك حماره يصبح عبدك.» (زرين كوب، ١٣٧٢ش (ب): ٢٨٦)

وصل بايزيد في هذا المجال إلى مراتب معقولة من التوحيد التي وصل إليها أعظم الأدب والعرفان. يحكى أنه «كان يصيح رجل أمام بيت بايزيد، ويقول: يا أبا يزید، فأجابه قائلاً: أبويزید يطلب أبایزید منذ أربعين سنة، ولا يجده.» (بخارى، ١٣٦٣ش: ٦٩٣/٢)؛ لذلك كل ما قال الشيخ الكبير عن الحسين بن منصور الحلاج يصدق على بايزيد، والكلام هو «إن لم يكن سلوكه توحيدياً فمن هو الموحد في الدنيا؟» (زرين كوب، ١٣٧٢ش (ج): ٨٤٦/٢)

### السطح:

المسألة المهمة التي تبرز في قصة لقاء الشمس التبريزي والمولوى هي كلام الشيخ

الشطّاح بايزيد البسطامي الذي جرى على ألسن الصوفيين، وأثر تأثيرا بالغا في ذهن المولوى وفكره. جدير بالإنتباه أنّ الصوفيين والباحثين في مجال التصوف اهتموا بمصطلح "الشطح" أكثر من اللغويين.

يقال: شَطَحَ في السَّير أو القول: تباعد واسترسل. (المعجم الوسيط، مادة شطح) وأما في الاصطلاح "الشطح" هو الكلام الذي ظاهره مخالف للشرع، وبما أنّه يصدر عن العارف الكامل يعدّونه من مقولة غلبة الأحوال الصوفية لا الإدّعاءات المثيرة للكفر. (زرين كوب، ١٣٧٢ش(ب): ٣٧٣)

يرى الدكتور زرّين كوب أنّ ظاهر الشطحيات مثير للفتن والاضطراب؛ لذلك يعتقد العالمون بالتصوف والعرفان أنّ هذا النوع من الكلام نابع عن غلبة الأحوال العرفانية. فأما الذين في قلوبهم زيغ ومرض، ولا يعرفون ألف التصوف من بآءه يرون أنّ الشطح يدلّ على جهالة الصوفي الشطّاح وحمقه وسوء أدبه. يقول صاحب اللّمع في "باب في معنى الشطح": «إن سأل سائل فقال: ما معنى الشطح؟ فيقال: معناه عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوّته، وهاج بشدّة غلبانه وغلبته، وبيان ذلك أنّ الشطح في لغة العرب: هو الحركة، ويقال: شطح يشطح إذا تحرّك.» (الطوسي، ١٤٢١ق: ٣٢١)

ثمّ يستطرد أبو نصر السّراج قائلاً: «ألا ترى أنّ الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق، فيفيض من حافتيه، يقال: شطح الماء في النهر، فكذلك المريد الواحد إذا قوى وجده، ولم يطق حمل ما يرد على قلبه من سطوة أنوار حقائقه شطح ذلك على لسانه، فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكّلة على فهوم سامعيها إلاّ من كان من أهلها، ويكون متبحّراً في علمها، فسّمى ذلك على لسان أهل الاصطلاح شطحا.» (المصدر نفسه: ٣٢١-٣٢٢) يتطرق أبونصر في قسم من كتابه إلى المعجزة والكرامة قائلاً: «لا يجوز كون هذه الكرامات لغير الأنبياء عليهم السلام؛ لأنّ الأنبياء مخصوصون بذلك والآيات والمعجزات والكرامات واحدة، وإنما سمّيت معجزات لإعجاز الخلق عن الإتيان بمثلها، فمن أثبت من ذلك شيئاً لغير الأنبياء عليهم السلام. فقد ساوى بينهم ولم يفرّق بين الأنبياء وبينهم.» (المصدر نفسه: ٢٧٥)

يبين أبونصر في هذا المبحث الوجوه المهمة في هذا الباب قائلاً:

«فوجه منها أنّ الأنبياء عليهم السلام مستبعدون بإظهار ذلك للخلق والاحتجاج بها

على من يدعونها إلى الله تعالى. فمتى ما كنتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى في كتمانها، والأولياء مستبعدون بكتمان ذلك عن الخلق، وإذا أظهروا من ذلك شيئاً للخلق لاتخاذ الجاه عندهم، فقد خالفوا الله، وعصوه بإظهار ذلك. والوجه الآخر في الفرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام أن الأنبياء عليهم السلام يحتجون بمعجزاتهم على المشركين؛ لأن قلوبهم قاسية لا يؤمنون بالله عز وجل، والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتؤمن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوت الرزق؛ لأنها أماراة بالسوء. والوجه الثالث أن الأنبياء عليهم السلام كلما زيدت لهم المعجزات يكون أتم لمعانيهم وفضلهم، وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الأولياء كلما زيدت في كراماتهم يكون وجلهم أكثر وخوفهم أكثر، حذرًا أن يكون ذلك من المكر الخفي لهم والاستدراج، وأن يكون ذلك نصيبهم من الله عز وجل، وسببا لسقوط منزلتهم عند الله عز وجل.» (المصدر نفسه: ٢٧٥-٢٧٧)

خلاصة البحث أننا نستطيع أن نقول إن الشطح هو نقطة ضعف للعارف الصوفي، ونقطة قوة له أيضًا. يرى ميرسيد شريف الجرجاني أن «الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى، وهو من زلات المحققين، فإنه دعوى بحق يفصح بها العارف من غير إذن إلهي بطريق يشعر بالنباهة.» (الجرجاني، ١٣٠: ٤٢٤ق)

### شمسان في سماء واحدة

إذا نظرنا إلى هؤلاء العارفين الصوفيين ندرك جيداً أن واحداً منهم يذكرنا بالآخر، عندما نذكر شيخ البلخ يخطر ببالنا الشمس التبريزي، وإذا تكلمنا عن بايزيد البسطامي يتبادر حسين الحلاج إلى ذهننا، والقطار النيشابوري يذكرنا بالجامي، خلاصة القول أننا لانرى واحداً من الصوفيين الحقيقيين خارجاً عن نطاق الحقيقة والولاية والفكرة التوحيدية. دخل شمس الدين محمد بن علي بن ملك داد التبريزي مدينة قونية يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٤٢ هـ. ش بعد سبعة قرون من الهجرة الإسلامية لزيارة شخصية علمية في سوق قونية. كان يذهب جلال الدين محمد البلخي - في الثامن والعشرين من عمره - مع جماعة من طلاب العلم ومريديه إلى البيت. (الأفلاكي، ١٣٦٢ش: ٦١٨/٢) لم تكن أية أمارات من الاستعداد لتحول مفاجئ في تصرفات جلال الدين المليئة بالزهد والإفتاء. وقف الشيخ المجرب الهادي الوقور أمام جلال الدين



محمد في سوق قونية وناداه: عندي سؤالٌ. أذنه جلال الدين، فقال الشيخ: محمد(ص) أفضل أم بايزيد؟ هذه اللحظة كانت لحظة طلوع الشمس في سماء مولانا. لاشك أن ظاهر السؤال كان يوحى بالكفر والإلحاد. يبدو في النظرة الأولى أن القياس قياس غير منطقي بالضبط كقياس بحر لاساحل له بنهر صغير. كان الهدف الرئيس للشيخ شمس الدين إدخال مولانا في حيرة واسعة لإضرام النار في معلوماته المدرسية وإشعال لوعة الحب والإشتياق في كيانه.

أجاب المولوى: ما هي النسبة بين محمد صلوات الله عليه صراف عالم المعنى، رئيس حلقة الأنبياء وخاتم النبيين وبين بايزيد؟ أكمل شمس الدين سؤاله قائلاً: «فلماذا قال محمد(ص): ما عرفناك حق معرفتك، وقال بايزيد: سبحانى ما أعظم شأنى وأنا سلطان السلاطين؟» (المصدر نفسه: ٦١٩/٢)

بادئ ذي بدء إن ذكر اسم بايزيد بجانب اسم الرسول الأكرم (ص)، وهذا النوع من النظم في الكلمات أمر مثير للإعجاب، ولكن هذا الأمر يدل على عظمة بايزيد ومنزلته العرفانية من جانب، ومن جانب آخر تحدى شمس الدين، مولانا جلال الدين ومعلوماته الفقهية والشرعية. لاشك أن شمس الدين التبريزى كان قد أدرك جيداً أن جلال الدين قد ارتوى كل الارتواء من علوم عصره؛ لذلك حان الوقت أن يشمر جلال الدين عن ساعديه لبدء سلوكه العملى والعرفانى، وينتقل من التبتل إلى الفناء بدلا من الاشتغال بالحياة اليومية الرتيبة.

هذا الشيخ الذى ظهر في زى التجار «كان يلبس قبة السيّاح» (زرين كوب، ١٣٧٢ش (ب): ١٠٤) وكان مشهورا بـ«پرّنده» (طيار) بسبب طي الأرض (الأفلاكى: ٦١٥) حظى مكانة مرموقة عند المولوى. يبدو أنه تم اللقاء بين شمس الدين والمولوى في الواقع، وليس أمرا خيالياً أو مفتعلا، بل أكد عليه الأفلاكى في مناقبه والمولوى في مقالات شمس.

### ماوراء القصة

إذا تأملنا في قصة لقاء شمس الدين مع المولوى من الممكن أن نحلل كلام بايزيد تحليلا دلالياً ونصّفه في أربعة أقسام: ١. قلة القابلية ٢. الشطح ٣. عقلاء المجانين ٤. الحب الإلهي.

## ١. قلة القابلية:

كان كلام بايزيد "سبحاني ما أعظم شأنى" كلاما ثقيلًا أتاح الفرصة للآخرين للتعبير عن آراءهم حوله؛ لذلك فملك تراثا عظيما من الفكرة والرؤية في هذا المضمار. إنَّ الشَّطْحَ في ساحة العلوم الباطنية ليس أمرا مستبعدا وغريبا، بل نرى بوضوح أنَّ الشَّطْحِيَّةَ ممزوجة بقلوب العارفين والشَّطَّاحين وجارية على لسانهم كما تبدو هذه الظاهرة جليَّة في كلام أعظم هذه الجماعة كحسين الحلاج، الشيخ روزبهان البقلى والشبلى والإمام أحمد الغزالي وعين القضاة الهمداني والمولوى و...، في البداية نقد جلال الدين البلخى فكرة بايزيد نقداً صوفياً، ولكنّه عدَّ صاحبَ الفكرة "قطبَ العارفين" قائلاً:

بايزيد اندر مزيدش راه بود نام قطب العارفين از حق شنيد  
(مثنوى معنوى، ج ٢: ٩٢٧)

(شاهد بايزيد طريق الحقَّ بسبب نوره العرفانى الكثير، وسمع من جانب الحقَّ لقب

قطب العارفين)

يرى المولوى أنَّ بايزيد هو مظهر العلم الكشفى، وبما أنَّ سلوك المولوى قائمٌ على الكشف والمجاهدة؛ لذلك شخصية بايزيد شخصية مقبولة عنده. ولكنَّ إجابة المولوى عن سؤال شمس الدين أَمَاط اللثام عن "قلة القابلية" لدى بايزيد قياساً مع رسول العصر والزمان صلوات الله عليه وآله وسلَّم. «كان بايزيد قليل القابلية، ما إن شرب كأساً حتَّى عربد، كان محمد(ص) شارب البحر، مهما يشرب يشقَّ عنان السماء صوته: العطش العطش» (الأفلاكى، ١٣٦٢ش: ٦١٦/٢)

إنَّ التعبير النبوى "ما عرفناك حقَّ معرفتك" الذى يعدُّ قسماً من سؤال شمس الدين يعبرٌ عن نقطة مهمَّة، وهى «أنَّ ادعاء الكمال في مجال اكتساب المعرفة الإلهية هو من مقولات الشطح». «زرين كوب، ١٣٧٢ش (ج): ٥٤٢/١» وكلام الشبلى «لو كان بايزيد رحمه الله هاهنا لأسلم على يد بعض صبياننا» (المصدر نفسه) خير دليل على هذه الإدعاءات الحادة المفعمة بالرَّعونة والحشونة. يرى الشبلى أنَّ الغاية القصوى من الكمال هى الإستمرار فى الحيرة قائلاً: "المعرفة دوام الحيرة"؛ لذلك نستنتج أنَّ كلامه يوحى بـ"قلة القابلية" والقيود المعرفية والإدراكية لدى الصوفيين. مع أنَّ ظاهر كلام شمس الدين التبريزى يدلُّ على قلة قابلية بايزيد، ولكنّه يشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى اتّباعه الكامل والأصيل من الرسول (ص) وشريعته، والثانية مكانته الخاصّة في السلوك العرفاني.

جدير بالذكر أنّ بايزيد شيئاً فشيئاً بلغ إلى منزلة عرفانية سامية ابتعد عن رؤيته الأولى، قيل: ذات يوم سئل بايزيد عن "الحبّ" ومكانة "المحبّ والعاشق". "إن الإجابة إجابة جديرة بالانتباه يدلّ على سعة سلوكه الجديدة ومقدرته العرفانية، «شرب أحد كأساً من ماء حبّه وارتوى... أجاب بايزيد: وشرب أحد سبعة بحار وهو مادام ظلّماً ويقولك هل من مزيد؟» (زرين كوب، ١٣٧٢ش(ب): ٢٨٦)

## ٢. الشّطح:

عند طلوع الشمس في سماء قونية كان محمد البلخي مفتياً مدرساً وأديباً حرّاً وطييقاً من أيّ ألم غراميّ وحرقة حبّ في الدنيا وما فيها؛ ولكنّه وجد نفسه أمام شطح لاذع، وهو "سبحاني ما أعظم شأنى". ألم يكن كلام بايزيد البسطامى كلاماً مزعوماً غرامياً وهراء لا طائل فيه من جانب صاحب طريقة أمام صاحب شريعة؟ طبعاً لا ير مولانا في البداية أيّ تناقض بين كلام الرسول (ص) أي ما عرفناك حقّ معرفتك، وبين كلام بايزيد أيّ سبحاني ما أعظم شأنى بل اعتقد أن كلام شيخ البسطام نابع عن قلة قابليّته العرفانية، وفي الحقيقة «أنّ أبا يزيد كان قد دخل أرضاً مجهولة، وما كان يجرى على لسانه لم يكن قوله هو». (المصدر نفسه: ١٠٨)؛ لذلك نرى بوضوح أن المولوى ينظر إلى بايزيد كـ«قدوة» في سلوك السالكين؛ فهذا كان يقول: «إن وجود الشيخ صلاح الدين في الحلقة تألّف نور بايزيد، ومراة عديدة كان يسمّى حسام الدين الجلبى «بايزيد الزمان». (المصدر نفسه: ٢٠٠)

يشير الجامى في كتابه "نفحات الأنس" إلى كلمات من أصحاب التصوف الذين افتروا عليه الكذب نحو «إنه قال: ضربت خيمتى بإزاء العرش أو عند العرش. قال شيخ الإسلام: هذه الكلمة كفرٌ في الشريعة، وبعدٌ في الحقيقة.» (جامى، ١٣٧٠ش: ٥٤) وأما صاحب اللّمع يومئى إلى ظاهرة شائعة بين الجماعات الإسلامية، وهو سوء تعبير كلمات الأعاظم قائلاً:

«وقد قصدت بسطام، وسألت جماعة من أهل بيت أبى يزيد رحمه الله عن هذه الحكاية،

فأنكروا ذلك وقالوا: لانعرف شيئاً من ذلك؛ ولولا أن شاع ذلك في أفواه الناس، ودونوه في الكتب ما اشتغلت بذكر ذلك.» (الطوسي، ١٤٢١ق: ٣٣٤) يستطرد صاحب اللمع كلامه في «باب في كلمات شطحيات تحكى عن أبي يزيد» قائلاً: «قال الجنيد رحمه الله: ثم إنني رأيت الغاية القصوى من حاله يعني حال أبي يزيد رحمه الله حالاً قل من يفهمها أو يعبر عنها عند استماعها؛ لأنه لا يحتمله إلا من عرف معناه، وأدرك مستقاه، ومن لم تكن هذه هيئته عند استماعه فذلك كله عنده مردود.» (المصدر نفسه: ٣٢٥)

حكاية "سبحاني ما أعظم شأنى" شبيهة كل الشبه بالحكاية التي حكاها الخواجه اسماعيل البخارى حيث يقول: «ذات يوم جاء أبو يزيد رحمه الله إلى المدينة أقبل عليه الناس إقبالا واسعا، ولكنهم كانوا بعيدين عن الله بعدا كبيرا. لم يعجبه سلوكهم، فخرج من المدينة فرارا منهم، ولكن الناس خرجوا معه. خاطب أبو يزيد خادمه أبا عبد الله الديبلي: أنظر كيف أرد هؤلاء عن نفسى. قال الخادم: أمعنت النظر فيه. صلى ركعتين، ثم التفت إلى الجماعة، وقال: إني أنا ربكم فاعبدوني. قال الجماعة: أصبح أبو يزيد كافرا، وادعى الألوهية. فقاموا وذهبوا. فى الحقيقة لم يدع أبو يزيد الألوهية بل قرأ آية من آيات الذكر الحكيم. قال الخادم: أقبل أبو يزيد، وقال: قرأت آية من كتاب الله عز وجل وتخلصت من عدة بلايا.» (بخارى، ١٣٦٣ش: ١٣٠/٢)

يرى صاحب اللمع أنه «لو سمعنا رجلا يقول: لا إله إلا أنا فاعبدون (الأنبياء: ٢٥) ما كان يختلج فى قلوبنا شئ من غير أن نعلم: أنه هو ذا يقرأ القرآن أو هو ذا يصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وكذلك لو سمعنا دائما أبا يزيد رحمه الله أو غيره، وهو يقول: سبحانى سبحانى: لم نشك بأنه يسبح الله تعالى، ويصفه بما وصف به نفسه.» (الطوسي، ١٤٢١ق: ٣٣٣)

قد أشار مولانا إلى كلام منصور الحلاج (أنا الحق) وادعاء فرعون (أنا ربكم الأعلى) فى بيت واحد، ولكنه يرى أن كلام الحلاج، "نور ورحمة" وكلام فرعون "جور ولعنة" قائلاً: أن أنا منصور رحمت شد يقين أن أنا فرعون لعنت شد بين

(مثنوى معنوى: ٢/٢٥٢٣)

(لاشك أن كلام "أنا الحق" الذى خرج من لسان منصور الحلاج، أسبغ عليه الرحمة، ولكن كلام "أنا ربكم الأعلى" الذى قاله فرعون صار سببا للعنه، فأبصر وتأمل.)

«الخمرة المنصورية» هذه (شيمل، ١٣٦٧ش: ٢٨٨) كانت «خمرة رحمانية» من جانب الحق، لا تلك «الخمرة الشيطانية» التي شربها فرعون كبرا؛ لذلك يعتقد صاحب شرح التعرف أن شطحيات بايزيد من جنس قراءة الآيات القرآنية لا الادعاءات الألوهية قائلاً: «ذات يوم ذهب أبويزيد إلى شاطئ البحر، جزر البحر كاملاً ليعبره، لما رأى أبويزيد المشهد نظر إلى السماء وقال: المكر المكر ورجع.» (بخارى، ١٣٦٣ش: ٣/٩٠٠)

٣. عقلاء المجانين:

إعادة النظر في البهاليل في الأدب الديني والعرفاني أمر جدير بالانتباه. ليس من الإنصاف أن ننظر إلى البهاليل كالمجانين الذين بعيدون عن السلوك المنطقي والعقلاني، بل إذا تأملنا فيهم نرى أن إعراضهم عند الناس هو الميزة البارزة في تصرفاتهم. بعبارة أخرى إن الهفوات والتناقض الظاهري في كلام البهاليل وسلوكهم يؤدّيان إلى احتقارهم عند الناس.

إن خلق الله سبحانه يعدّ بعداً مرتباً من خلقته تعالى من جانب، ويعدّ من أكبر الحجب أمام القرب من الله تعالى من جانب آخر؛ لذلك من الممكن أن يقال إن الشطح لا يكشف عن قلة قابلية الصوفي فقط بل نوع من السلوك العرفاني للتظاهر بالجنون والتخلّص من الحجاب الإنساني.

يرى صاحب التعرف أن إعراض الخلق عن الصوفي هو من الأسباب الرئيسية لاكتساب المعرفة بالنفس، ولا يحصل هذا الأمر إلا بالتظاهر بالجنون قائلاً: «من أعرض عن الخلق يعتبر مجنوناً عندهم؛ لأن العاقل عند الناس هو الذي يأنس بهم، ولما فرّ من الخلق وسِمَ بالجنون.» (المصدر نفسه: ٨٢٩/٢)؛ لذلك يعتقد شارح التعرف أن هذا النوع من السلوك جهد نافع للقرب من الحق، ويستند إلى حديث من الرسول الأكرم (ص) ويؤوله، فهذا هو: «أكثر أهل الجنة البله.» من أعرض عن الخلق والدنيا فهو الأبله عند العوام؛ فلا غرو أن المجانين هم المجانين عند العقلاء، وأن العقلاء هم المجانين عند المجانين... ربما يكون للجنون معنى آخر، وهو أنه من صاحب الحق تعالى لما حوله الله تعالى إلى أحسن الحال يقبل إليه الناس... ولكن إقبال الخلق إلى الإنسان يشغله عن الحق عزوجل؛ لذلك يتصرّف العارف كالمجانين غيرة على الحق، وخوفاً من فوته حتى يعرض الناس عنه ليشغل بخدمة الحق، والمجنون هو الذي لا تعرف طريقاً إلى الله

تعالى.» (المصدر نفسه: ٨٣٠)؛ لهذا السبب إنَّ إقبال الخلق إلى العارف يؤدّي إلى بعد العارف عن الحق، وبما أنه يدرك حقيقة الأمر يتظاهر بالجنون غيرة على المحبوب لكي يتخلّص من "تلبس إبليس".

يشرح شارح التعرّف، الفكرة البهلوية، ويحكى حكاية "عليان" أحد البهاليل الذي اشترى الجنون تأديبا للجسم. بحث درويش عن هذا البهلول، فرأى الأطفال يلقون إليه الحجر. فرّق الأطفال، وأنقذ عليان من أيديهم، ولكنّ الدرويش لم يجد أى أثر من الجنون فيه، ولم يكن كلامه شبيها بكلام المجانين. قال عليان: «دع الأطفال يضربوني أرجو أن يعفر الله لى بسرورهم.» (المصدر نفسه: ٨٣١)

في الحقيقة إنَّ جنون البهاليل يكمن في الابتعاد عن المعصية لا البعد عن المعرفة، «فقال أنا مجنون عن معصيته لست بمجنون عن معرفته.» (المصدر نفسه: ٨٣١)

#### ٤. الحبّ الإلهي

«قيل للبسطامي: أنت تسير على الماء وفي الفضاء. قال: يطفو الخشب الجافّ على الماء، وتطير الطيور في الفضاء... على الرجل الإلهي ألا يتعلّق بشئٍ إلا بالله تعالى.» (الأفلاكي، ١٣٦٢ش: ٢ / ٦٢٨)

نظم جلال الدين البلخي حكاية بايزيد البسطامي شعرا في غاية الجمال الأدبي، وبين أنّ كلامه يدلّ على استغراقه في الحبّ الإلهي، وهذا الاستغراق الذي ينبع عن النفس الروحانية الإلهية يذكّرنا بحال الحلاج وقوله "أنا الحقّ":

بود انا الحق در لب منصور نور بود انا الله در لب فرعون زور

(مثنوى معنوى: ٣٠٥/٢)

(تبدّل قول منصور الحلاج "أنا الحقّ" إلى النور، ولكنّ قول فرعون "أنا الله" كان

كذبا وهراءا)

يحكى لنا المولوى أنّ بايزيد البسطامي الفقير ذو الأبهة والعظمة، قال لمريديه: أنا الله.

با مريدان آن فقير محتشم بايزيد آمد كه نك يزدان منم

گفت مستانه عيان آن ذوفنون لا إله إلا أنا ها فاعبدون

(مثنوى معنوى: ٢١٠٢-٢١٠٣)

(قال أبويزيد ذوالكمال في حالة السكر: لا إله إلا أنا ها فاعبدون)

عندما زال ذلك الذوق الباطني والحال المعنوية من بايزيد، قال له مريدوه صباحا: هكذا قلت، وهذا ليس كلاما صحيحا. قال بايزيد لمريديه: لو كررت كلامي مرة أخرى اقتلونني؛ ولكنّ أباي زيد لما شرب شرابا طهورا فسكر ونادى: «ليس في جبتى إلا الله» فهجم عليه أصحابه هجوما شديدا. (أنظر: مثنوى معنوى، ٤/٢١٢٤-٢١٢٩)

نستنتج من كلام مولانا أنّ كلمات نحو "سبحاني ما أعظم شأنى، أنا الله، وأنا الحقّ، وليس في جبتى إلا الله" كلمات نورية منبعثة من نور الله تعالى. إن قبلنا فكرة السهروردي في قاعدة "إمكان الأشرف" من الممكن أن يقال: إنّ الأشياء تستضيئ بنور الحقّ، ولو أزيلت المسافة، واقتربت الأشياء من مصدر النور، لاشكّ أنّه يحصل الاتّحاد التّورى، وهذا الاتّحاد ليس بمعنى الحلول، بل هو الظهور. "سبحاني" في كلام بايزيد يعنى لست أنا شيئا، بل هو الله تعالى حقيقة كلّ شئ. يشير المولوى كثيرا إلى الاتّحاد بين العاشق والمعشوق. على سبيل المثال يشبه العارف بقطعة حديدية أصبحت محرمة ونازية حتى تصيح: «أنا النّار، أنا النّار.» (زرين كوب، ١٣٧٢ش (ب): ٢٩٠) كلّما أخذت القطعة الحديدية من النار خواصّها تصيح بأعلى صوتها "أنا النار".

فعلى حدّ تعبير أبى عثمان الهجویری ليس هذا الأمر "فقد الذات وفناء الشخص"، بل هو التّخلّص من غلبة النفس والأوصاف البشرية و"سقوط الأوصاف المذمومة". (القشيري، ١٤٢٣ق: ٣٩)

والنكتة الأخيرة في باب الشّطح من منظار المولوى هى أنّ المولوى يقيم الحجّة لإثبات صحّة الشطحيّات، ويشبه الشّطح بكلام الوحي القرآن الكريم، وإن كان التشبيه تشبيها غير حقيقى. يرى أنّ القرآن في الظاهر كلام الرسول (ص)، ولكنّه في الحقيقة كلام الله تعالى الذى جرى على لسان النّبىّ الأكرم (ص)، ومن اعتقد أنّه ليس كلام الحقّ تعالى فهو الكافر حقّا.

گرچه قرآن از لب پیغمبر است هرکه گوید حق نگفت او کافر است

(مثنوى: ٤/٢١٢٢)

ولذلك من الممكن أن نقول إنّ الشطحيّات ليست كلام الرجل الإلهي والعارف، بل هى كلام الحقّ تعالى تجرى على لسان العارف في حالة السكر والفناء.

## النتيجة

إنّ دراسة شطحيات العارفين والصّوفيين تكشف عن أبعاد خفيّة من فكرة أصحاب التّصوّف الإسلامي، ولها آثار مفيدة في إماطة اللثام عن آراء أعظم الفكر والأدب والعرفان في الثقافة الإسلامية؛ فلا بدّ من الدّراسات الأكاديمية العميقة في هذا المجال الخصب. تبين لنا أنّ للشّطح مستويين: مستوى خارجي أو ظاهري، وهو ظاهر الكلام، وعادة ما بعيد عن العقل والمنطق والأدب، ومستوى داخلي أوباطني، وهو الرّؤية العميقة التي يعتقد بها العارف، ويجرى على لسانه في حالة السّكر والفناء، ولا شكّ أنّ هذا المستوى العميق من الشّطح يعبر عن تعبير قرآني وفكرة قرآنية، ولكنّ العوامّ ينظرون إليه برؤية سطحية غير دقيقة. في هذا الجهد المتواضع انصبّ جلّ اهتمامنا على دراسة آراء العارفين في شطحيات بايزيد البسطامي، ورأينا أنّهم يرون أنّ الشّطح البسطامي شطّح من جنس النّور الرّباني لا الأهواء النفسانيّة.

## المصادر والمراجع

- أونعيم اصفهاني، الحافظ أحمد بن عبد الله الشافعي. (١٤١٨ق). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الأفلاكي العارفي، شمس الدين أحمد. (١٣٦٢ش). مناقب العارفين به كوشش تحسين بازيجي. چاپ دوم. تهران: دنياي كتاب.
- انصاري، خواجه عبدالله هروي. (١٣٦٢ش). طبقات الصوفية. تصحيح دكتور محمد سرور مولايي. چاپ نخست. تهران: انتشارات توس.
- أنيس، ابراهيم. (لاتا). المعجم الوسيط. اسطنبول: المكتبة الإسلامية.
- ابن جوزي، الإمام جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمان بن علي الجوزي. (١٤١٢ق). صفة الصفة. بيروت: دارالفكر.
- بخاري، خواجه امام ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد مستملي. (١٣٦٣ش). شرح التعرف. تصحيح محمد روشن. چاپ نخست. تهران: انتشارات اساطير.
- جامي، نورالدين عبدالرحمان. (١٣٧٠ش). نفحات الأنس من حضرات القدس. تصحيح دكتور محمود عبادي. چاپ نخست. تهران: انتشارات اطلاعات.
- الجرجاني، السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الحنفي. (١٤٢٤ش). التعريفات. وضع حواشي محمد باسل عيوني السود. الطبعة الأولى. بيروت: دارالكتب العلمية.



- زرین کوب، دکتر محمد حسین. (۱۳۷۲ش) (الف). بحر در کوزه. چاپ چهارم. تهران: انتشارات علمی-سخن.
- \_\_\_\_\_ (ب). پله پله تا ملاقات خدا. چاپ چهارم. تهران: انتشارات علمی.
- \_\_\_\_\_ (ج). سرّنی. چاپ چهارم. تهران: انتشارات علمی.
- السلمی، ابو عبد الرحمن محمد بن الحسین. (۱۴۱۹ش). طبقات الصوفیة. حَقَّقه وعلَّقَه مصطفی عبدالقادر عطا. الطبعة الأولى. بیروت: دارالکتب العلمیة.
- شیمیل، آناماری. (۱۳۶۷ش). شکوه شمس. ترجمه حسن لاهوتی. چاپ نخست. تهران: انتشارات علمی فرهنگی.
- الطوسی، أبو نصر عبدالله بن علی السراج. (۱۴۲۱ق). اللمع فی تاریخ التصوف الإسلامی. ضبطه وصحَّحه کامل مصطفی الهنداوی، الطبعة الأولى. بیروت: دارالکتب العلمیة.
- القشیری، الإمام ابو القاسم عبد الکریم بن هوازن. (۱۴۲۳ق). الرسالة القشیریة. وضع حواشیه خلیل المنصور. الطبعة الأولى. بیروت: دارالکتب العلمیة.
- کلاباذی البخاری، أبوبکر محمد. (۱۳۷۱ش). التعرف. به کوشش دکتر محمد جواد شریف. چاپ نخست. تهران: انتشارات اساطیر.
- مولوی، محمد جلال الدین بلخی. (۱۳۷۱ش). مثنوی معنوی. تصحیح نیکلسون. چاپ نخست. تهران: انتشارات پژوهش.
- نیشابوری، عطار. (۱۳۷۲ش). تذکرة الأولیاء. تصحیح محمد استعلامی. چاپ هفتم. تهران: انتشارات زوآر.